الكاتب السياسي والمفكر الكبير جهاد الخازن:

أمريكا وإسرائيل كانتا تخططان بدعم الإخوان لتحويل مصر إلى أفغانستان جديدة

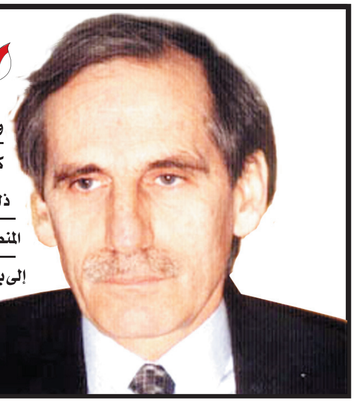

كشف الكاتب السياسي والمفكر الكبير جهاد الخازن عن أن الحرب الأمريكية المرتقبة ضد سوريا ستدفع بالمنطقة كلها إلى أتون حروب أهلية وشرور كبيرة لن يعرف مداها إلا الله، وقال إن ما يحدث في المنطقة العربية الآن هو «ربيع إسرائيلي» وليس ربيعاً عربياً بالمرة.

وأضاف في حوار صحفي نشرته صحيفة «الوطن» المصرية عبر الهاتف من مقر إقامته في لندن أن الإيجابية الوحيدة التي خرجنا بها كعرب من الحرب على العراق هو أن المعسكر الغربي بات قلقاً من تداعيات حروب جديدة في المنطقة، وأن شعوب هذه الدول لن تغفر لهم ذلك أبداً، وهو ما يفسر انسحاب بريطانيا وفرنسا أكبر حلفاء أمريكا في الحرب على العراق. وأشار إلى أن الحرب التي تريد أمريكا إشعالها في المنطقة ستعيد للذاكرة مجدداً العمليات الإرهابية وفي مقدمتها أحداث 11 سبتمبر، والتي لن تنال من الأرض الأمريكية فقط.. بل ستمتد إلى باقي دول المنطقة. وكشف «الخازن» لأول مرة عن تفاصيل الوساطة التي قام بها شخصياً لرأب الصدع بين بشار الأسد ومبارك مع نهاية 2010 في قمة «سرت» الليبية بتكليف مباشر من جمال مبارك وعمر سليمان.. وإلى نص الحوار.

ونظراً لأهمية ما جاء في هذا الحوار تعيد صحيفة (14 اكتوبر) نشره تعميماً للفائدة:

■ ..ما الذي يُدبّر الآن للشرق الاوسط؟

■■ الوضع يسير من سيئ إلى أسوأ ومن خطير إلى خطير جدا، والولايات المتحدة تواجه مأزقا حقيقيا بعد إعلان أوباما توجيه ضربة عسكرية لسوريا بعيداً عن مجلس الأمن، وهذا التوجه يأتي في ظل الضغوطات الكبيرة التي يقوم بها اليمين المتطرف داخل الكونجرس الأمريكي لصالح إسرائيل بضرورة توجيه هذه الضربة، وأنه بتنفيذها ستعود لأمريكا القبضة الحقيقية واليمنة الكبرى على المنطقة من جديد، وأوباما لن يشرك أي جنود على الأرض، وهذا يعني أنه سيتدخل في سوريا مضطراً بسبب ما وصفه بـ«الخطوط الحمراء»، بشأن ما يفعله بشار الأسد مع شعبه، لذا فإنه يريد الحفاظ على ماء وجه أمريكا كقوة عظمى ولكي لا يظهر أمام العالم كشخص متردد لا يثبت على مواقفه.

لكن جون كيري المعروف، بالتعقل، فيما يتعلق بالسياسة الخارجية الأمريكية صرح مؤخراً بدعم توجيه الضربة الأمريكية ضد سوريا. وقد أدهشني بالفعل خطاب كيري الأخير خاصة أن مجلس الأمن أقر مؤخرا بأن أمامه أسبوعين على الأقل لكي يتأكد من أن النظام السوري استخدم الأسلحة الكيميائية ضد شعبه في الغوطة، لكن الأمريكيين الآن يأخذون الأمر «بالشبهات» مع أنه معروف أن هذه الشبهات قد تكون في صالح المتهم حتى تثبت إدانته.

أمريكا تريد أن تكف تدريجياً على سوريا بالشبهات وهذا أمر جد خطير، وفي ظل حالة الارتباك هذه نجد أوباما يتحايل من جديد على الرأي العام الدولي بالحصول على موافقة الكونجرس الأمريكي كغطاء شرعي على الأقل أمام شعبه.

■ كتب توني بلير -رئيس الوزراء البريطاني الأسبق- مقالة في صحيفة «التايمز» مؤخراً قال فيها صراحة: «علينا أن نكف عن فرك الأيدي.. يجب أن نفعل شيئاً» تجاه الوضع في الشرق الأوسط وسوريا.

■■ توني بلير بالنسبة لي مجرم حرب وتاريخه أسود، ألم يكفه مقتل حوالي مليون عربي ومسلم من العراق إلى أفغانستان؟. أنا لا أحترمه، ولقد أسهم بشكل مباشر في إشعال الحروب في المنطقة برمتها، لكنني أعتقد أن الشعب البريطاني قال كلمته وأصبح واعيا حيال ما يجري على الأرض وتبعات تدخل بريطانيا في حرب ليست من حقها، لدرجة أن ديفيد كاميرون -رئيس الوزراء البريطاني- قال في تصريح جارح مخاطبا بلير عقب رفض البرلمان اشتراك بريطانيا في الضربة العسكرية على سوريا: «لقد كنت سببا مباشرا في تسميم جو الثقة بين الحاكم والمواطن في بريطانيا».

■ كيف ترى المعارضة الروسية التحرك الأمريكي؟

■■ المعارضة الروسية هنا ليست لأجل عيون العرب، بل لأجل معارضة المعسكر الغربي وفرض ميزان قوة جديد في المنطقة، فروسيا لا تعنيها سوريا بقدر ما يعنيها عدم هيمنة الأمريكيين وحلفائهم، ولا يجب أن يخدعنا مرة أخرى، فتأييدهم لمنع توجيه ضربة عسكرية لسوريا هو من باب الخلاف مع المعسكر الغربي لا أكثر.

■ هل تتوقع أن تعلن إيران الحرب على إسرائيل ومن ثم إشعال المنطقة بأكملها حال توجيه الضربة العسكرية لسوريا؟

■■ موقف إيران يحتمل خطوتين بارزتين، أولاهما أنها لن تتدخل بشكل مباشر في تهديد إسرائيل والرد على الضربة العسكرية الأمريكية مباشرة، خاصة أن سوريا هي الحليف الوحيد لها في المنطقة، بل ستقوم بتوجيه رد فعلها من خلال حلفاء آخرين لها من خلف ستار، والخطوة الثانية أنها ستظهر أمام أمريكا بأنها ليست عامل حرب ضد إسرائيل، وبالتالي قد يعيد الأمريكيون حساباتهم تجاه إيران إذا ما ظهرت بموقف معتدل يشجع الأمريكيين على فتح باب الحوار معها مرة أخرى، خاصة أنها تعاني من حصار كبير وعليها 4 سلات من العقوبات فضلاً عن الموقف المتأزم مع دول الخليج.

■ لماذا فشلت جهود المراقبين الدوليين من قبل، كما فشلت أيضاً مهمة مجلس الأمن ومبعوثيه في إنقاذ الوضع السوري؟

■■ لم تخرج مهامهم جميعاً إلا بالمزيد من الاتهامات المتبادلة بين النظام السوري والمعارضة، خاصة فيما يتعلق باستخدام الأسلحة الكيميائية التي كانت على نطاق محدود، لكن أحداث «الغوطة» جاءت لتشهر الوضع المأساوي في وجه الجميع، ومن المؤسف أن كلا من بريطانيا وفرنسا أعلنتا مبكراً أن المتورط في هذه الأحداث هو النظام السوري قبل أن تخرج تقارير رسمية تثبت ذلك، مما جعل مصداقية هاتين الدولتين تسقط في عيون العالم.

■ هل ستدق نذر العمليات الإرهابية ناقوسها مجدداً عقب الهجمة الأمريكية المرتقبة على سوريا كرد فعل قائم بقوة؟

■■ وارد جداً، وأخشى ما أخشاه أن نعود إلى أجواء 11 سبتمبر بسبب الرعونة الأمريكية التي ليس لها أي غطاء دولي سوى تحقيق مزيد من الهيمنة والمضي قدما نحو قطع أشواط أكبر في مخطط الشرق الأوسط الكبير والفوضى الخلاقة التي تحدثت عنها كوندوليزا رايس لأول مرة عام 2005، وناقوس الإرهاب من خلال العمليات الإرهابية سيكون يهدّ منذ بداية العملية، فما كان من رئاسة الجمهورية إلا أن حددت موعداً للرئيس اليمني يوم الأحد الساعة 11 صباحاً ويوم الاثنين الساعة 11 ليشار، فاعتبر بشار أن هذه إهانة لأنه ليست دعوة، بل أمر استدعاء بسابقة محمد اليوم والتوقيت، ولم يلتقيا!. وقتها اندهش جمال مبارك جدا وقال لي: «لماذا كل هذه الحساسية؟!»، وفشل اللقاء.

■ لماذا لم تحاول إعادة المياه إلى مجاريها مع بشار مؤخراً، خاصة أن الوضع هناك بات مأساويا وأنت كنت مصدر ثقة له؟

■■ لم أحاول ولن أحاول، فقد أصبح بيننا ميراث من دم السوريين الأبرياء، ولن أكون حياديا معه في عرض أي وجهة نظر، فلكل كاتب ضميره، وأنا لن أخون ضميري أبداً، لقد انتهى وقت النصح.

■ هل نحن على أعتاب «سايكس بيكو» جديدة، وتطبيق استراتيجية «الفك والتركيب» للشرق الأوسط من جديد؟

■■ هم قسّموا من قبل مئات المرات، فكم مرة سيتم تقسيمنا؟ هناك حرب أهلية غير معلنة في العراق، وسوريا وحدها فيها 18 طائفة!. إن ما نعيشه الآن نحن مسئولون عنه بطريقة ما، فالمسلمون يقتلون المسلمين من العراق إلى ليبيا إلى مالي، وإسرائيل هي التي تعيش مرتاحة البال.. إنه ربيع إسرائيل وليس ربيع العرب.

■ بعض التحليلات تشير إلى أننا على وشك الدخول في حرب عالمية ثالثة لو حدث تدخل عسكري في سوريا؟

■■ لا أعتقد ذلك مهما قال المتشائمون، فروسيا والصين تحديداً لن تغامرا ببلادهما وشعبيهما وقوتيهما من أجل سوريا، وإذا قامت الحروب ستكون داخلية بيننا، وستحدث عمليات إرهابية كبيرة سيروح فيها المزيد من العرب والمسلمين.

■ خرج علينا «اللوبي العربي» يحاول من خلال تكتل بعض دول المنطقة إنقاذ الوضع، هل يستطيع؟

■■ بكل أسف هذا اللوبي منقسم على نفسه تجاه الوضع في سوريا، وهذا سيعرقل كثيراً أي توجه عربي لصد العدوان الصهيو-أمريكي على سوريا وبتحفيز مباشر من اللوبي الصهيوني في مجلس الشيوخ الأمريكي، فقطر تدعم المعارضة غير الوطنية ومن ورائها الإرهاب، والسعودية تدعم المعارضة السورية الوطنية ومع ذلك هناك خلافات وانشقاقات داخل صفوف هذه المعارضة الوطنية، حزب الله يساند نظام بشار وهذا أمر أرفضه جملة وتفصيلا لأنه قام على محاربة إسرائيل وأعتبره حركة للتحرر الوطني وليس للبطش والإرهاب والدموية، وعليهم أن يراجعوا موقفهم من النظام السوري لأنه يفقدهم مصداقيتهم الوطنية أمام العالم.

■ هل تتوقع أن يتهقهر التنظيم الدولي للإخوان بعد سقوط حكمهم في مصر؟

■■ سيذكر التاريخ للإخوان أن كل ما فعلوه خلال فترة حكمهم أنهم كانوا أداة إسرائيل في المنطقة، فعلى الرغم من أنهم جاءوا للشعوب العربية تحت دعوى أنهم حزب ديني إسلامي عربي ضد الاحتلال الصهيوني إلا أنهم خلال فترة حكمهم لم يفعلوا أي شيء من شعاراتهم الواهية، بل على العكس إسرائيل هي الدولة الوحيدة التي استطاعوا أن يقيموا معها علاقات ممتدة وقوية بخلاف أي دولة أخرى! فالتنظيم الدولي للإخوان بالتعاون مع أمريكا وإسرائيل كان يخطط لتحويل مصر إلى أفغانستان أخرى. وقد يحاول خلق أفغانستان جديدة في أكثر من دولة عربية لكن في مصر لا أعتقد ذلك أبداً.

■ تعارض الضربة العسكرية الأمريكية وفي الوقت ذاته لا ترضى ببشار ونظامه.. ما الحل للوضع السوري؟

■■ حقيقة لا أعرف وليس لديّ ما أقوله، فالخراب سيطول الوضع السوري في الحالتين، لكن يبقى الأمل في أن تستطيع المعارضة السورية الوطنية الحقيقية لاحقا أن تنقذ سوريا من براثن المجهول، هل هم مهيأون لذلك؟.. هل يملكون القدرة على ذلك؟.. لا أعرف.. الإجابة متروكة للزمن.

■ كنت من الأشخاص المقربين لبشار حتى 2011، لماذا انقطعت هذه العلاقة فجأة؟

■■ هذه شهادة حق في بشار، كان شخصاً متواضعاً يستمع للجميع، يرتدي الملابس الشبابية ويحمل جهاز لاب توب في معظم أوقاته ويتعامل مع الجميع ويستمع أيضا للجميع بكل احترام لدرجة أنه إذا كنت في ضيافته فإنه يستقبلك من الباب ويوصلك بنفسه إلى الباب، لكنه منذ ذلك الوقت كف عن سماع الآخرين فلم أشعر أن لي مكاناً ولم نتحدث بعدها أبداً.

■ لكنك كنت وسيطاً في رأب الصدع بين مبارك وبشار قبل هذه القطيعة مباشرة، فما أسرار هذه الوساطة وكيف انتهت إلى القطيعة؟

■■ اتذكر أنه في نهايات 2010 طلب مني بشكل مباشر كل من جمال مبارك واللواء عمر سليمان وساطة مباشرة مع بشار لرأب هذا الصدع، وبغض النظر عن تفاصيل الوساطة التي أعتبر نفسي في حل من الحديث عنها وقد كانت شاقة إلا أنها فشلت فشلا ذريعا، وآخر كلمة قالها لي بشار لكي أوصلها لمبارك: «قل له لا آذا ابنه ولا هو أبوها.. خليه يحل عني». ومن وقتها لم نتحدث إلا مرة أو مرتين في إطار المجاملات الاجتماعية لا أكثر.

■ هناك واقعة تتعلق بقمة «سرت» الليبية كنت وسيطاً أيضاً فيها حول لقاء يجمع بشار ومبارك!

■■ (مندهشاً) نعم هذا صحيح، فرغم فشل الوساطة الأولى التقيت بشار في قمة سرت وقال لي صراحة «أريد أن أكون أول رئيس عربي يهنئ الرئيس مبارك بعودته سالماً من العملية الجراحية الأخيرة له في ألمانيا، فهل لك أن توصل هذه الرسالة؟». وبالفعل أجريت اتصالاتي، لكن لضيق الوقت كان هناك أيضاً طلب مباشر من الرئيس اليمني السابق علي عبدالله صالح بأن يكون هو كذلك أول من يهنئ مبارك بنجاح العملية، فما كان من رئاسة الجمهورية إلا أن حددت موعداً للرئيس اليمني يوم الأحد الساعة 11 صباحاً ويوم الاثنين الساعة 11 ليشار، فاعتبر بشار أن هذه إهانة لأنه ليست دعوة، بل أمر استدعاء بسابقة محمد اليوم والتوقيت، ولم يلتقيا!. وقتها اندهش جمال مبارك جدا وقال لي: «لماذا كل هذه الحساسية؟!»، وفشل اللقاء.

■ يرى الأمريكيون أن الحرب على سوريا إنقاذ للإنسانية المنتهكة على يد بشار ونظامه!

■■ الحرب على سوريا لن تحل من الأمر شيئاً، بل ستزيد من الاقتتال الداخلي، وستشتعل الحرب الأهلية أكثر، وستفتح أبواب الشر علينا جميعا. والخبراء الاستراتيجيون يدركون ذلك تماما، فتبعات هذه الحرب لن تكون في التوقعات أبدا، وعلى الأمريكيين أن يعرفوا أنها ليست نزهة في نهاية الأسبوع وأن غارة واحدة على سوريا لن تسقط النظام ولن تنقذ الشعب.

■ من المسئول عن تداعي الموقف السوري إلى هذه الدرجة الحرجة؟

■■ لو كان بشار تحرك بنفسه هو وزوجته أسماء إلى «درعا» للوقوف على الحقيقة في بداية الأحداث ما كانت كل هذه التداعيات حدثت، لقد قابلت شخصاً مقرباً من أهالي «درعا» مؤخراً في الكويت وأقسم لي أن «درعا» ليس فيها أية أحزاب سياسية، لكن النظام كان يتعامل بوحشية كبيرة مع سكان المدينة بما في ذلك الأطفال، ويكل أسف أصبح سلوك النظام بعد تفجر الوضع هناك تجاه شعبه «يجب كسر رؤوس الجميع، بلا تفرقة.

الحرب على سوريا -إذا حدثت- ستزيد من الاقتتال الداخلي ولن تحل من الأمر شيئاً

الأمريكيون عليهم أن يدركوا أن حربهم على سوريا لن تكون نزهة.. وإيران ستشارك في رد الهجوم من خلال حلفائها

الإخوان هزموا أنفسهم

› جهاد الخازن

الإخوان المسلمون لن يعودوا إلى الحكم في مصر، لن يعودوا غداً أو بعد غد، ولن يعودوا بعد سنة أو عقد. كل المطلوب الآن هو أن تقتنع الجماعة بأن دورها في الحكم انتهى، وأن تعمل لوقف الإرهاب، ما يسمح بإعادة تأهيلها السياسي لدخول البرلمان بحزب غير ديني يدافع عن فكرها.

لا أحتاج أن أسجل في هذه السطور العمليات الإرهابية التي شهدتها مصر منذ سقوط حكم الإخوان، وإنما أقول إن كل الإرهابيين بدأوا أعضاء في الجماعة ثم انشقوا عنها ليمارسوا الإرهاب، وهو يظل إرهاباً، لو كان ضحيته مسيحيا أو يهوديا، فكيف والإرهابيون في مصر يدعون أنهم مسلمون سنّة، ثم يقتلون مدنيين أو جنوداً من السنّة. ربنا سيحاسبهم. أدعو حماس إلى فك الارتباط مع الجماعة، كما أدعو الحكومة المصرية إلى وقف التعامل مع حزب النور فهو من نوع الإخوان.

سنة الإخوان في الحكم كانت وبالاً على مصر فالاقتصاد دُمّر أو كاد، والفتنان الأمني زاد اضعافاً فيما الجماعة تحاول أخونة البلد ولا حليف لها أو صديق سوى الإدارة الأمريكية وإسرائيل.

وهكذا أقرأ انتقاضة في «نيويورك تايمز» كتبها مجلس التحرير، أي مجموعة من المليكودين أنصار إسرائيل، تتحدث عن «الدكتاتور حسني مبارك» وأقول إن صفة دكتاتور لا يمكن أن تنطبق على حسني مبارك فهو لم يقتل أحدا، والإجراءات الأمنية في أيامه كانت رداً على إرهاب جماعات خرجت من عباءة الإخوان.

حسني مبارك لم يفرض قانون الطوارئ وإنما ورثه، ويكاد عمر هذا القانون أن يكون من عمر الثورة المصرية، ولا أذكر أن أي إدارة أمريكية احتجت على حكم الطوارئ في مصر، ولكن عندما فرض الحكم الانتقالي الطوارئ لفترة قصيرة احتجت الإدارة فورا كما احتج أنصار إسرائيل في مجلس تحرير «نيويورك تايمز».

الافتتاحية كانت من الوقاحة أن تتحدث عن استقلال إعلامي، فيما الإخوان يعتدون على مراسلي التلفزيون المصري ويسرقون معداتهم. بل أنها تتهم العسكر في مصر بمحاولة السيطرة على القضاء. ما أذكره هو أن الإخوان المسلمين فازوا في انتخابات البرلمان، وقالوا إنهم لن يرشحوا أحدا للرئاسة ثم رشحوا اثنين، وفاز محمد مرسي بالرئاسة (وأصرّ على أن فوزه لم يكن ثابتا أكيدا)، وبدأ يعمل فوراً للسيطرة على القضاء. الديموقراطية تقوم على ثلاث سلطات: تشريعية وتنفيذية وقضائية، وحاول الإخوان المسلمون جهدهم السيطرة على هذه السلطات الثلاث ما يلغي الديموقراطية. ومع ذلك لم تكتب «نيويورك تايمز» أي افتتاحية تنتقد حكومة محمد مرسي. هي تنتقد الآن «الانقلاب» فلا ترى أن ملايين المصريين تظاهروا ضد حكم الإخوان وكانت أعدادهم أكبر كثيراً من الذين تظاهروا ضد حكم حسني مبارك بين 25/1/2011 و11/2/2011.

ما كنت لأتكلم عن افتتاحية في جريدة لولا أنني أعرف أنها تعكس رأي إسرائيل فهي تريد مصر «خَرِبة» يحكمها الإخوان ليغرق المصريون في بحر الجهل والفقر، وتضيع قيادة المجموعة العربية المعقودة دائماً لمصر.

أشكر دول الخليج القادرة لأنها انتصرت لمصر، ثم أشكرها لأنها في موقفها هذا وقفت ضد رغبات أميركا».

مصر تحتاج إلى عمل لا تنظير، وتقرير القدرة التنافسية في العالم يضع مصر في مرتبة متدنية على قائمة الدول في التعليم والإنتاج ودور المرأة في العمل. أقول للقراء المصريين اقرأوه.

ربما استطاع الفريق الأول عبدالفتاح السيسي قيادة مصر نحو بر الأمان إذا انتُخب رئيساً، فهو يحظى بدعم أبرز الساسيين المصريين في الحكم الانتقالي وحوله في انتخابات الرئاسة القادمة، كما أن غالبية من المصريين تؤيده.

لو كنت مصرياً لانتخبته، ولو كنت صاحب قرار لعملت ضد أي محاولة لعزل الإخوان أو منعهم من العمل السياسي. يجب أن يكونوا قادرين على تشكيل حزب غير ديني يمثل فكرهم، فليهم شعبية كبيرة باقية في مصر، ولعلهم عند ذلك يعملون وقد استفادوا من تجربتهم في الحكم فلا يكررون الأخطاء التي أودت بهم.

عن / (الحياة) الندنية

«حزب الله» يجب أن يراجع موقفه الداعم للنظام السوري وأن يتذكر أنه حركة تحرر وطني وليس أداة للبطش والإرهاب

«الفوضى الخلاقة».. هل هي قابلة للتطبيق في مصر؟

› د. عمار علي حسن

هناك حكمة راسخة في حياة مصر، بوصفها أقدم دولة في تاريخ الإنسانية، وهي أن الطامعين فيها لا يسلكون إليها سبيلاً إلا إذا وجدوا بها منفذاً سهلاً. وقد تكون هذه قاعدة عامة تنطبق على كل الدول والأمم تقريبا، لكنها الأكثر حضوراً وبروزاً في الحالة المصرية، نظراً لأن الدولة التي شيدها الفراعنة على ضفاف النيل تقع في قلب العالم، ولذا كانت دوماً محط أنظار القوى الاستعمارية الساعية إلى تكوين إمبراطوريات ممتدة في الأرض.

ومنذ أن احتل الساميون مصر قبل خمسة آلاف سنة وهي تتعرض لموجات متلاحقة من الاستعمار، جعلها تُحكم من قبل قوى أجنبية متلاحقة، لكنها في المقابل صدّت موجات كثيرة حين كان أهلها متماسكين، أو ملتفين حول سلطة عادلة منجزة، أو كان لديها قدرات تمكنها من حيازة المنعة ومقاومة الغزو. فالمغول كسرهم المصريون في عين جالوت، والموجات الصليبية المتلاحقة هُزمت على أيديهم سواء في الشام أو فوق الأراضي المصرية، ولم تتمكن الحملة الفرنسية من الاستقرار في مصر بعد أن غزتها سنة 1798 سوى ثلاث سنوات، وفشلت حملة فريزر الإنجليزية في غزو مصر سنة 1807، وأخفق العدوان الثلاثي على مصر عام 1956 بعد تأميم عبدالناصر لقناة السويس في إثنائه عن قراره أو إسقاطه، وخاضت المقاومة الشعبية في هذه الحرب وفي حرب الاستنزاف عقب هزيمة 1967 وأثناء حرب أكتوبر 1973 المعارك إلى جانب القوات المسلحة، فمنعت العدو من أن يحقق أهدافه.

وقبل هذه التواريخ بآلاف السنين، تمكّن أوني من طرد الساميين ومطاردتهم حتى بلاد الشام، وحرر أحمس مصر من الهكسوس، وحررها رمسيس من الحيثيين. وحتى القوى الاستعمارية التي تمكنت من دخول مصر، سرعان ما أمنت أن لهذا البلد خصوصيته، ولذا تركت له قدراً من الحرية في تصريف أموره، وضعفت أمام قوته الحضارية الطاغية فانطبعت وتأثرت بها، ولهذا رُفع عبر التاريخ شعار «مصر مقبرة الغزاة».

هذه القراءة المختصرة لتاريخ مصر ضد «الاستغراء» قد تصلح أمثولة لتشحذ همم المصريين المعاصرين ضد ما تقوله السلطة دوماً من أن البلاد تتعرض لمؤامرة خارجية، لكنها لا تنفع كلية في فهم وتشريح، ومن ثم التعامل الخلاق، مع الحالة التي تمر بها مصر حاليا، لا سيما مع الامتعاض الذي قوبلت به ثورة 30 يونيو من الغرب، بعد أن أسقطت رهاناته على جماعة الإخوان في تأمين مصالحه بمنطقة الشرق الأوسط، ومنها: ضمان تدفق النفط، والحفاظ على أمن إسرائيل، وحراسة الممر الملاحي لتجارة الولايات المتحدة وأوروبا والمتمثل في قناة السويس، وتجميع جهد «المسلمين السنة» في وجه «المسلمين الشيعة» في إطار «اقتتال طائفي»، زرع الغرب بذرته في العراق، ويعول عليه في إنهاك العالم العربي، وإدخاله في نزاع دائم مع الدولة الإيرانية أو تعويق استراتيجيتها في المنطقة، كلاعب إقليمي قوي.

وفي ضوء هذا لا بد أن نستعرض العناصر التي بوسعها أن تؤثر على تحقيق ما يسمى بـ«الفوضى الخلاقة» - في الأصل فوضى هدامة - التي أقرّ كثيرون أنها السبيل إلى «الشرق الأوسط الكبير»، وهي مسألة قُتلت بحثاً وتناولا من قبل الخبراء والساسة العرب على مدار نحو عشر سنوات كاملة، ويمكن سرد هذه العناصر على النحو التالي:

1 - الإخوان وحصان طروادة: قدت راهن الإخوان على أن الولايات المتحدة الأمريكية وبعض الدول الغربية ستتدخل لحماية حكمهم، ونقلت بعض الصحف المصرية عن وزير الدفاع الفريق عبدالفتاح السيسي أن الرئيس السابق محمد مرسي قد قال له حين أبلغه يوم 3 يوليو 2013 بأنه لم يعد رئيساً للبلاد بعد أن خلعه الشعب في 30 يونيو: «أمريكا لن تتركك». فاستثمار الأمريكان في الإخوان لم يعد يحتاج إلى جهد لإثباته، بعد مواقف واضطن المناصرة للجماعة، وحتى حين بدأت تتخلى عنها، ربما مؤقتا، فقد تم هذا بشق الأنفس، خوفاً من خسارة أمريكا للشعب المصري، بعد أن تعلمت من تجربتها المريرة مع الثورة الإيرانية حين وقفت إلى جانب الشاه حتى قرب النهاية فخسرت الإيرانيين إلى الأبد.

وقد وقعت أمريكا في فخ الإيهام الإخواني بأن الجماعة قوة ضاربة في الشارع المصري، وأن أنصارها بالملايين، ولذا فبوسعها أن تضمن للولايات المتحدة تحسين صورتها في مصر، فضلا عن حماية مصالحها، كما يمكنها أن تعيد لعب الدور الذي سبق أن مارسته التنظيمات الجهادية في سيعينيات وثمانينيات القرن المنصرم لحساب أمريكا، حين تكفلت باستنزاف جهد وإنهاك الاتحاد السوفيتي المنهار بعد اجتياح قواته أفغانستان.

وإذا كان من الصعب على قوة عظمى مثل الولايات المتحدة أن تبدّل استراتيجياتها بسهولة فإن المتوقع أن تحاول تكييف الوضع والواقع الجديد في مصر بما لا يعرقل مسار تلك الاستراتيجية. فالأهداف البعيدة ستستقر على حالها، مع إعادة توظيف أدوار الأطراف التي بُني جزء من الخطة على أكتافها. وهنا يمكن لأمريكا أن تعيد صياغة الدور المنوط بالإخوان، بحيث يؤدي إلى النتيجة ذاتها التي كان من الممكن أن يؤديها وجودهم في السلطة، وذلك بالنسبة للمصالح الأمريكية، لا سيما إن كان المطلوب هو إنهاك الدولة أو الضغط على أعصاب أي نظام حكم قادم في مصر كي لا يتمرد على الدوران في الفلك الأمريكي، لا سيما بعد تنامي النزعة إلى الاستقلال الوطني لدى قطاعات عريضة من الشعب ومن النخبة المصرية.

وهنا تكون جماعة الإخوان، إن ارتضت أن تستمر في لعب دور الخادم للسياسة الأمريكية، قد صارت «حصان طروادة» الذي يُمكن واشنطن من أن تضغط على السلطة في مصر، أو تتدخل لإنقاذ أي خطط بشأن ما قيل عن «الفوضى الخلاقة» أو الترتيب لـ«الشرق الأوسط الكبير». ولعل واشنطن ترى في جماعة الإخوان، التي ارتبط تنظيمها الدولي بسياسات غربية ولم ترسخ بعد فكرة الدولة الوطنية في أدبياتها وممارستها، طرفا جاهزاً للعب هذا الدور.

2 - وضع إقليمي متفجر: فالعالم العربي منذ هروب الرئيس التونسي السابق زين العابدين بن علي من قصره في 14 يناير 2011 لم يعد كما كان قبل هذا التاريخ، فقد جرت في النهر مياه جديدة هادرة، وربما تجري مياه أخرى. وهذا الوضع الإقليمي المتقلب والساخن يضغط بالطبع على الداخل في مصر، ليس فقط لموقعها في قلب العالم العربي ولا لأنها الدولة العربية الأكثر سكاناً أو الأقدم تاريخاً، لكن لأن الغرب ينظر إليها على أنها مفتاح للمنطقة العربية، وأن أي تغيير فيها سيؤثر على ما حولها. ومن هنا فقد ترى الولايات المتحدة وحلفاؤها أن تغيير الأوضاع في دول عربية عدة يبدأ من القاهرة.

وبالقطع لن يعود العالم العربي إلى ما كان عليه قبل «ربيع» عاصف، تحول في بعض الدول إلى «خريف» قاس، وفي أخرى إلى «شتاء» ربما يكون طويلاً، وفي ثالثة إلى «صيف» قائظ، حيث النار والدمار. فمن قبل انطلاق الثورة التونسية كانت المساحة الجغرافية الممتدة من جبال طوروس إلى جبال الأطلسي جنوبي المتوسط، تكاد تكون هي البقعة الأرضية التي لم ينلها تغيير جذري، وتعيش على حالها كأيام الحرب الباردة، ولا تعرف سبيلاً إلى «موجة» ديمقراطية ثالثة، أدت إلى تساقط نظم مستبدة وشمولية في مشارق الأرض ومغاربها.

قبل هذا كان العرب يعانون من أربعة أشياء، استعصاء قبول السلطة لفكرة الإصلاح السياسي، وموت الرأي العام أو انعدام تأثيره، وغياب بدائل متماسكة للسلطات الحاكمة، ووجود «وعد» من قبل الجماعات والتنظيمات السياسية ذات الإسناد الإسلامي بأنها تمتلك «مشروعاً» يحمل «الخير» للناس من دون أن تحسم المسائل المتعلقة بالولاء للدولة الوطنية، والإيمان بالتعددية السياسية والفكرية والاجتماعية والدينية، وكذلك تداول السلطة.

الآن ربح العرب «سقوط الصمت»، فأصبح لديهم «شارع» قادر على التأثير، وتحسب السلطة له حسابا بعد طول إهمال واستهانة، وباتت الحكومات موقنة أن الإصلاح ضرورة أو استحقاق للشعوب طال انتظاره، فيما انكشف «التيار المتأسلم» وبان زيف أطروحته التي تتاجر بالدين أو توظفه كأيديولوجيا بائسة أو دعاية سياسية رخيصة، وانكشفت الفجوة الهائلة بين شعاراته وممارساته وبين قدرته على الفعل والإنجاز. ولأن هذا التيار كان يشكل عقبة أمام التطور إلى الأمام، والدخول إلى فضاء العالم الحديث، فإن هزيمته يمكن أن تكون بداية لتطور قوي، حيث يأخذ العلم مكانه ويؤدي الدين دوره الطبيعي في تحقيق الامتلاء الروحي والسمو الأخلاقي والنفع العام.

لكن اتباع هذا التيار لن يتغيروا بالكامل، فبعضهم قد يعيد النظر في أفكاره، وبعضهم قد يبقى على حاله متزمتاً، بل فريق منهم سيزداد كراهية للمجتمع ومن ثم يحتد عليه عنفاً، فيقتل ويخرب بلا هوادة، ومثل هؤلاء يمكن أن يكونوا أداة في يد كل من يسعى إلى تفكيك الدول العربية عامة، فينقسم المقسّم ويتجزأ المجزأ، وتظهر دويلات قائمة على أساس عرقي أو طائفي، لتعاد صياغة ما قررته اتفاقية سايكس بيكو، لتجد إسرائيل نفسها وسط دويلات صغيرة أو إمارات محدودة متناحرة، فيسهل عليها أن تسيطر على مقاليد الأمور في المنطقة. وبالقطع فإن هذا الوضع، وحتى إن لم يمتد إلى مصر، سيضغط عليها، ويحشرها في الزاوية، ويؤثر سلباً على مكانتها وأمنها. وربما يفكر البعض في امتداد هذا إلى مصر مستغلاً الاضطراب الأمني والانفصال الشعوري في سيناء، والغبن الجهوي في الصعيد، والشحن السلفي في المحافظات الحدودية.

3 - وضع داخلي صعب: فالثورة المصرية ورثت تركة ثقيلة من نظام حسني مبارك، متمثلة في الإمكانات المادية الضعيفة، وانهيار القيم الاجتماعية، وزاد على ذلك العنف المفرط والإرهاب والاحتجاجات المستمرة التي تخلق وضعاً مضطرباً أو غير مستقر. وحال استمرار هذا الوضع فإن الدولة ستتضعف تدريجياً، وتزداد رخاوتها، وقابليتها للاستغزاز، بما يعطي الدول الخارجية فرصاً كبيرة في أن تنفذ ما تريده من خطط أو مؤامرات حيال بلادنا.

4 - وكلاء الغرب: وهذا اصطلاح يلخص ما يتم تداوله في الساحة السياسية والاجتماعية المصرية اليوم من أن هناك أفراداً ومؤسسات مصالحها مرتبطة بالغرب، ولذا تعمل على خدمته، إما لأنه من يمدها بالفكرة، فتردده أحياناً من دون وعي ولا تحسيس للملاءمتها لمصالحنا وأوضاعنا وأحيانا عن اقتناع، أو أنه يمدها بالمال ومن هنا تتعامل معه وفق قاعدة «من يدفع يملك»، وبالقطع من يملك يوجه ويتحكم. ومن هنا فإن كان لهؤلاء دور كبير وتأثير قوي في بلادنا فإنهم يفتحون نوافذ عديدة للتدخل الخارجي، والعكس صحيح.

لكن كل هذه السهام ستتكسر نصالها على قاعدة تماسك المصريين والتحامهم. فالشعب المصري هو الرقم الأهم والأقوى في المعادلة، والعالم الخارجي يكيف وضعه وفق إرادة المصريين إن اتحدوا وتماسكوا وأصروا جميعاً أو أغلبيتهم الكاسحة على خيار معين. وقد دلت تجارب كثيرة على هذا، فوقوف الشعب خلف السلطة في محطات تاريخية عدة وقى البلاد شر الاحتلال أو الهزيمة النهائية، وهذا أمر مشروط بأن يكون الشعب راضياً عن السلطة، فالرضا هو جوهر الشرعية ومتنها الأساسي. ويتحقق الرضا بعدل السلطان وإنجاز وتواضعه وتفانيه في خدمة وطنه، ولهذا يبقى العدل ركنا أصيلا من أركان الأمن القومي.